المكتبة الفلسفية

معرفة الله والطريق إليها

تأليف

دكتورة / كوكب عامر

أستاذ بقسم الفلسفة

كلية البنات – جامعة عين شمس

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة

البريد الإلكتروني:
Alsakafa_aldinaya@hotmail.com
هاتف : 2025922620+

فاكس: 2025936277+

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية:

معرفة الله والطريق إليها

تأليف: كوكب عامر

1- الفلسفة الاسلامية

2- الله (الاسلام)

ا- العنوان

رقم الإيداع: 2019/8387

الترقيم الدولي:978-977-341-736-9

معرفة اللّه والطريق إليها

تأليف

دكتورة/ كوكب عامر

أستاذ بقسم الفلسفة

كلية البنات – جامعة عين شمس

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة الله والطريق إليها

تمهيد:

المعرفة Knowledge هي ثمرة التقابل والاتصال بين ذات مدركة وموضوع مدرك، وتتميز عن باقي معطيات الشعور من حيث أنها تقوم في آن واحد على التقابل والاتحاد بين هذين الطرفين(١).

هذا عن المعرفة عمومًا، أما معرفة الله فهي صفة من عرف الحق سبحانه وصفاته، ثم صدق الله تعالى في معاملاته، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ثم طال بالباب وقوفه، ودام بالقلب اعتكافه فحظى من الله تعالى بجميل إقباله. وصدق الله تعالى في جميع أحواله، وانقطع عن هواجس نفسه، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره فإذا صار عن الخلق أجنبيًا، ومن آفات نفسه بريًا ومن المساكنات والملاحظات نقيًا،

---

(١) ورد هذا التعريف بالمعجم الفلسفي – مجمع اللغة العربية، تقديم د. إبراهيم مدكور، ص ١٨٦ – ١٨٧.

ولمعرفة المزيد من تعريفات لفظ معرفة انظر: محمد إسماعيل إبراهيم، الألفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م، ط ٢، ص ٧١. وانظر أيضا: مختار الصحاح، ص ٤٢٦، مادة " عرف ".

ودام في السر مع الله تعالى مناجاته، وحق في كل لحظة إليه رجوعه وصار محادثًا (أي ملهمًا) من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره يسمى عند ذلك "عارفًا" وتسمى حالته "معرفة"[١].

وقد اهتم الفلاسفة بالبحث في نظرية المعرفة فبحثوا إمكانية قيام المعرفة وكان موقف الشكاك الذين أنكروا إمكانية الوصول الى معرفة يقينية وموقف أصحاب الشك المنهجي الذي انتهوا من الشك إلى اليقين وتناولوا المعرفة من حيث التفرقة بين معرفة أولية سابقة على التجربة ومعرفة بعدية أو مكتسبة من التجربة. كما عرضوا للبحث في طبيعة المعرفة الإنسانية وعما إذا كانت الأشياء المدركة ذات طبيعة مستقلة عن العقل الذي يقوم بإدراكها أم أن تلك المدركات الحسية مجرد أفكار في العقل؟ وهل هذه المعرفة العقلية مطابقة لحقائق الأشياء كما هي عليه في الواقع الحسي؟ وناقشوا هذه القضايا[٢]. قديما وحديثا واختلفت في ذلك آرائهم. كما بحثوا في موضوعات المعرفة ومناهجها وأدواتها والغرض منها.

وفي عصرنا الحالي قد أنكر الوضعيون البحث فيما وراء الواقع ورأوا إلا موجود إلا المحسوس وبذلك أنكروا المتيافيزيقا وأهملوا البحث فيها، واعتبروا البحث في

---

(١) الإمام القشيري: الرسالة القشيرية، تحقيق د. عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، ط ٢، ص ٦٠١.

(٢) من المراجع الهامة في المعرفة:

- Montague WP: Ways of Knowing, ١٩٢٥.
- Hobhous L.T: The Theory of Knowledge.
- Woozley A.D: Theory or Knowledg (An Introduction ١٩٤٩).
- Ewing A.C: Fundamental Question of Philosophy.
- Ledger Wood,, Analysis of Knowledge, ١٩٤٠.
- Ladd G.T. Knowledge Life and Reality.
- Ladd G.T. Philosophy of Knowledge, ١٨٩٧.

الغيبيات تفكير غير علمي لأن التفكير العلمي يقوم على المنهج العلمي الذي قوامه الملاحظة والجربة الحسية ولا يعترف بالغيبيات[١].

أما المنهج الإسلامي في المعرفة فهو منهج ثري ويكمن ثراؤه في أنه منهج شامل متكامل جمع بين المعرفة الحسية والعقلية القلبية والخبر المنزل موضحا دور كل منها في المعرفة وأنها جميعا متآزرة تعمل للوصول إلى الحقيقة سواء فيما يتعلق بعالم الشهادة أو عالم الغيب وأنه لا غنى للإنسان عن واحدة منها نظرا لتعدد موضوعات المعرفة واختلافها.

والخبر المنزل يطلعنا على أمور في عالم الغيب يصعب على الإنسان بل ويستحيل عليه أحيانا معرفتها بوسائل المعرفة التي أتاحها الله له من حس وعقل وقلب. وهذا ما سيتضح في موضعه بعد.

---

(١) يرى "آير" زعيم الوضعية المنطقية في إنجلترا استبعاد الميتافيزيقا والعلوم المعيارية من مجال البحث العلمي لأنه يصعب التحقق من صوابها علميا أو حسيا فالقضايا التي يستحيل التثبت من صدقها أو كذبها في حدود الخبرة الحسية تكون غير ذات معنى ولذلك كان مبدأ التحقق مقياسا تحدد به معاني العبارات ودلالاتها، وغايته ربط القضايا بالواقع لاختبار معناها ولذلك استبعدت قضايا الميتافيزيقا من مجال البحث العلمي واعتبرت الوضعية المعاصرة الميتافيزيقا كلام فارغ nonsense لا يحمل معنى أي لا يمكن التثبت من صوابه أو خطئه في حدود الخبرة الحية ويقول "بارنز" أستاذ الفلسفة الحالي بجامعة درهام: أن مبدأ التحقق عند أتباع الوضعية المنطقية هو الذي يقول: (أن القضية التي يمكن التحقق منها بالرجوع إلى الواقع هي وحدها ذات معنى).

ويقول " بارنز ": أن مبدأ التحقق عند أتباع الوضعية المنطقية أنفسهم تحصيل حاصل Tautology وبهذا المعنى لا يصلح هذا المبدأ أن يكون مقياسا لاختبار القضايا. إذ يجوز أن تكون القضايا ذات معنى لا يتيسر التثبت من صوابه بالخبرة الحسية وبهذا ينهار أساس الوضعية المنطقية كما ذهب الفيلسوف التحليلي " برتراند " و " كارل بوبر " إلى أن الوضعيين المنطقيين يقولون " عن الجملة إن لم تكن قضية تحليلية ولا تركيبية كانت خالية تحليلية ولا تركيبية ومن ثم يكون فارغا من المعنى ".

ارجع إلى كتاب د. توفيق الطويل أسس الفلسفة، ص ٢٨٣ – ٢٨٤.

ولمعرفة المزيد من موقف الوضعيين من الميتافيزيقا انظر: ص ٢٧٠ – ٢٩٠، نفس المرجع.

ولما كان موضوع المعرفة في هذا البحث هو الله سبحانه وتعالى فإنه لا يخفى علينا أن الحس والعقل قادران على تبين آثار الله حيث ينقل الحس صور المحسوس إلى العقل ثم يقوم العقل بالاستدلال منها على وجود الخالق، فالحس والعقل هما مصدرا معرفة الموجودات في عالم الشهادة.

أما معرفة ذات الله وأسمائه وصفاته فإنها تكون بالقلب والخبر المنزل من السماء، حيث أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن أسمائه الحسنى وصفاته وعن الأمور الغيبية المتعلقة بالعالم الآخر، وعن العبادات التي نتقرب بها إليه عن طريق ترشيد النص المنزل.

وقد أدرك المفكرون ضرورة تعدد أدوات وطرق المعرفة كالكندي في "الفلسفة الأولى" حينما يصرح بأن المعرفة المتمثلة في العقل مستمدة من الإدراك الحي فيقول: "وإذ الحواس واجدة الأشخاص فكل متمثل في النفس من المحسوسات فهو للقوة المستعملة للحواس"[١]. ويقول أيضًا: "فإن بهاتين السبيلين (يعني سبيل الحس وسبيل العقل) كان الحق من جهة سهلا ومن جهة عسيرا لأن من طلب تمثل المعقول ليجده بذلك – أي الحس – مع وضوح في العقل، عمى عنه كغشاء عين الوطواط عن نيل الأشخاص البينة الواضحة لنا في شعاع الشمس"[٢]. وقد اعترف الكندي بالقلب وكذا بالنص المنزل ودورهما في المعرفة.

كما نجد عند ابن سينا نظرية متكاملة في المعرفة جمع فيها بين الحس والعقل والقلب والنص المنزل وهو لم يضع المصادر الأربعة في مرتبة واحدة فقد جعلها تتدرج في الترقي من الحس إلى العقل إلى الذوق أما الخبر المنزل فهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يقول ابن سينا: "والمعاني الكلية إما أن تحصل من النفس يتصفح الجزئيات أو بفيض يتصل بها علوي عن طريق الإلهام. لكن المعاني

(١) الكندي: رسالة في الفلسفة الأولى من رسائل الكندي الفلسفية تحقيق الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط١، سنة ١٩٥٠، ص ١٠٧.

(٢) المرجع السابق: ص ١١٠.

الكلية الأولية لو كانت مستفادة باستقراء الجزئيات لما كانت بها ثقة بل ما كانت كلية بالحقيقة وبيمن البين أن هذه المعاني هي غاية الصحة وهي علة الثقة لغيرها فإذن حصولها بفيض علوي" (١).

وقد أدرك بعض فلاسفة الغرب المحدثون ضرورة تعدد مصادر المعرفة مثل "كانت Kant" الذي ذهب إلى أن الحواس تقدم للعقل إدراكات حسية متفرقة للأشياء الموجودة في العالم الخارجي وهي تمثل مادة المعرفة، ثم يقوم العقل بالربط بين هذه الإدراكات الآتية عن طريق الحس وإيجاد علاقات بينها حتى يصل إلى المعرفة فتلك الإدراكات الحسية تصب في مقولات أو قوالب عقلية كمقولة الجوهر أو معقولة السببية وغيرها وهي تمثل صورة المعرفة، فيضفي عليها العقل معاني وعلاقات لتصير معرفة متكاملة تكون نتاج تعاون الحس والعقل(٢)، وبذلك جعل " كانت " العقل مباطن للمادة أو التجربة الحسية(٣).

كما دعا " بيكون " إلى ضرورة تعاون الحس والعقل في الوصول إلى المعرفة فصنف الفلاسفة إلى أصحاب النزعة التجريبية "ودعاة التيقن" فالأولون يستندون إلى مجرد الملاحظة الطارئة كالنملة تقنع بان تكدس مواد غذائها لتستهلكها فيما بعد. أما الفيلسوف العقلي صاحب اليقين فيشبه العنكبوت الذي يغزل نسيجه من مادته، فيثير الإعجاب بدقة صنعه، ومهارته، ولكن النسيج واه تعوزه المتانة ولا ينتفع به أحد.

---

(١) رسالة السعادة والحج العشرة على أن النفس الإنسانية جوهر، ط أولى، ص ١٣.

ولمعرفة المزيد عن نظرية المعرفة عند ابن سينا ينظر كتاب د. فيصل بدر عون "نظرية المعرفة عند ابن سينا، ملتزم بالطبع، مكتبة سعد رأفت، جامعة عين شمس.

(٢) Immanuel Kant: Critique of pure Reason: Translate by: Norman Kemp Smith, ١٩٥٣.

(٣) تعرض مذهب " كانت " في إخضاع التجربة للعقل بشكل مطلق للنقد من جانب المفكرين. ارجع إلى أ. د. يحيى هويدي: مقدمة في الفلسفة العامة، الطبعة الرابعة، ص ١١٥ – ١١٦.

وبين النملة والعنكبوت تقف النحلة، الفيلسوف الحق – تجمع مادتها من الأزهار والبساتين وبفنها الذي تتميز به تعمل وتكد حتى تتمثل المادة، وتحيلها رحيقا، والفلسفة الصحيحة عند بيكون أشبه ما تكن بعمل النحلة[١].

وسنتبين معًا من خلال هذا البحث المتواضع أن معرفة الله تعتمد على مصادر متعددة. وسأبدأ بالحس كمصدر للمعرفة ثم أوضح دور الحس في معرفة آثار الله كما جاء في القرآن الكريم ثم أبين حدود المعرفة الحسية وبعد ذلك سأعرض للعق كمصدر للمعرفة ودوره في الاستدلال على وجود الله من خلال الآيات القرآنية مع إبراز ما جاء في القرآن من تكليف للإنسان بالنظر العقلي في الكون موضحه أن الحس والعقل لهما حدود يعجزان عن تخطيها أو تجاوزها وأن معرفة ذات الله لا تكون إلا بالقلب الذي تهيأ لتقبل المعرفة الذوقية اللدنية، التي لا يتطرق إليها أدنى شك ومن المهم تبين أهمية النصوص المنزلة في معرفة الله تعالى: معرفة أسمائه الحسنى وصفاته ومعرفة الأمور الغيبية التي تخفى على الحس والعقل ولا يكون السبيل إلى تبينها إلا بالقلب والخبر المنزل من عند الله ولا سبيل إلى تصديقها إلا بالقلب المؤمن بقدرة الله تعالى أما غير المؤمن فلنا معه وقفة في نهاية البحث لمناقشة قضية رفضه لما خارج نطاق الحس والعقل وبعده عن الروحانيات Pneumatology واعتقاده بأن الإيمان بها وهم والبحث فيها لا جدوى منه وسنبدأ أولا بالحس كمصدر للمعرفة.

(١) ارجع إلى: أ. د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص ٣٠١.

أولاً : الحس كمصدر للمعرفة:

المعرفة الحسية هي التي تعتمد أساسا على المصادر الحسية المعروفة من لمس وشم وسمع وبصر وتذوق، وهناك من الفلاسفة أصحاب المذهب التجريبي Empiricism من غالي في تقدير قيمة الحس كمصدر للمعرفة وعلى رأس هؤلاء "بيكون" و"هوبز" و"لوك" في القرن السابع عشر و"باركلي" و"هيوم" في القرن الثامن عشر و"بنتام" و"جيمس مل" و"جون استيورت مل" من النفعيين في القرن التاسع عشر. ثم "اسبنس" و"ليلى سيفين" من أنظار نظرية التطور.

وفي القرن العشرين ظهر أصحاب التجريبية المنطقية العلمية أمثال "فلتشر" و"ايرمي" هؤلاء وغيرهم(١).من أصحاب المذهب الحسي يرون أن الحس هو مصدر المعرفة الإنسانية وحدة ويرفضون ما عداه من وسائل أخرى كالعقل والقلب ويقول الأستاذ الدكتور توفيق الطويل: "غالى بعض أتباع هذه النزعة الحسية فأنكروا وجود عقل يفكر وأسرفوا في تقدير الحس الخالص مصدرا للمعرفة فالعقل يولد صفحة بيضاء Tabula Rasa ليس فيه نقش سابق على التجربة، وأن التجربة التي تخط على هذه الصفحة سطورها، في هذا اتفق التجريبيون جميعا حتى "هربرت اسبنسر" الذي رأى أن المبادئ العقلية لا تجيء إلى النوع اكتسابا ولكنها تنتقل بالوراثة من جيل إلى جيل حتى تصبح بالنسبة للفرد نظرية موروثة"(٢).

والقائلون بالمذهب الحسي Sensationalism قديمًا وحديثًا قد ردوا المعرفة في كل صورها إلى الإحساس واعتبروا الإدراك الحسي Perception هو مصدر المعرفة حتى أن "تومس هوبز" يصرح بأن كل موجود محسوس – وهذا الرأي سنناقشه بعد قليل – والإحساس عنده مجرد حركة في الجسم الذي يحس ناشئة عن حركة في الجسم المحسوس وليس التخيل أو تداعي المعاني أو نحوه إلا مجرد حركات

---

(١) انظر كتاب أ. د. توفيق الطويل: " أسس الفلسفة "، ص ٣٤٩ وما بعدها.

(٢) أ. د. توفيق الطويل: " أسس الفلسفة "، ص ٣٤٩.

جسمانية، بل أن العواطف والوجدانات عنده مرجعها إلى اللذة والألم اللذان ينشأن عن حركة الدورة الدموية، وليس العقل ومبادئه الأولية المزعومة إلا وليد اللغة التي يستخدمها"[١].

وأصحاب المذهب الحسي جميعًا يرفضون المعرفة الفطرية وإذا كان لوك قد اعترف بالتفكير العقلي في تفسيره للأفكار المركبة وعمل العقل في تكوينها فإن اهتمامه باليقين العقلي قد نفر الحسيين الذين أنكروا عمل العقل وفاعلية النفس في المعرفة وقد فسيروا الفكر بتداعي المعاني آليا ميكانيكيا، كما فعل "هيوم"، ومنهم من أنكر كائن يسمى العقل كما ذهب الفيلسوف الإنجليزي "اير" زعيم الوضعية المعاصرة[٢].

وإذا كان الفيلسوف التجريبي يرفض البحث في كل ما هو خارج عن نطاق التجربة الحسية فذلك لأن العالم والفيلسوف التجريبي يلزمها المنهج التجريبي وهو يقوم على الملاحظة الحسية التجريبية العلمية. ومعنى هذا أنه ملزم بالبحث في المحسوسات دون أن يتجاوزها إلى تناول الروحانيات التي لا تتجسم في محسوس، وليس معنى هذا أنه ينكر ما وراء المحسوس فهو يعترف بالروحانيات ويؤمن بها دون أن يتناولها بالبحث لأنها لا تخضع للبحث التجريبي فالإيمان بما وراء الحس شيء يختلف عن البحث في المحسوس دون غيره من الموجودات ولهذا أنكر للعالم الذي يلتزم بالمنهج التجريبي أن يؤمن بما وراء المحسوسات.

وقد حدث في تاريخ البحث العلمي في الإسلام أن كان العلماء يؤمنون بما وراء المحسوس ويعترفون بأن لكل موضوع منهج مناسب له.

أن العالم في معمله يقتصر على تناول المحسوسات ولكنه حين يخرج من معمله يكون حرا في أن يؤمن بما يشاء من الموجودات غير المحسوسة؛ فالإيمان بالروحانيات شيء لا يتعارض قط مع الاقتصار على البحث العلمي في المحسوس فهذه قضية وتلك

---

(١) د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص ٣٥١ – ٣٥٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٥٢.

قضية أخرى وقد أوضح لي هذا الرأي أستاذي توفيق الطويل مشيرًا إلى اللبس الذي يحدثه بعض الباحثين بقولهم بأن كل عالم تجريبي وكل فيلسوف هو غير مؤمن بالضرورة بالروحانيات.

دور الإدراك الحسي
في معرفة آثار الله كما جاء في القرآن الكريم:

قد يظن أن الحس بما يشتمل عليه من سمع وبصر ولمس وشم وتذوق لا يلعب دورا في معرفة الله سبحانه وتعالى ولكن الواقع غير ذلك فإن الحس لا يدرك الله إدراكا مباشرا ذكر اللسان قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[١]. وذلك لأن الله أجل وأعظم من أن يكون في متناول الحس الإنساني في الحياة الدنيا، وإنما تكون رؤيته تعالى للمؤمنين فقط من أهل الجنة يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾[٢]. إلا أن الحس يمكنه إدراك آثار الله ومخلوقاته الدالة على وجوده سبحانه ويقدم هذه الإحساسات للعقل ليستدل منها على وجود الله.

وقد أشار الله إلى الحس ودوره في معرفة آثار الله في آيات عديدة ومن أهم المصادر الحسية في معرفة الله حاستا السمع والبصر، وقد جاء ذكرهما في بعض الآيات مجتمعتان وفي آيات أخرى ذكرت كلحاسة منهما منفردة.

أما عن ورود كل منهما منفردة فذلك مثل قوله تعالى في حاسة السمع: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾[٥].

إن حاسة السمع تلعب دورًا في معرفة النصوص المنزلة الدالة على معرفة الله إذ بها يستطيع الإنسان أن يسمع كلام الله ودعوة الرسل للإيمان به تعالى. كذلك حاسبة البصر التي عن طريقها يستطيع الإنسان أن يبصر بديع صنع الله وعظمة تنظيمه للكون وما فيه من مخلوقات متنوعة ويرى ألوان وأنواع الحياة على الأرض من نبات وأزهار وطيور

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٢) سورة القيامة: الآيات ٢٢ – ٢٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٩٣.

(٤) سورة لقمان: الآية ٧.

(٥) سورة يس: الآية ٢٥.

وحيوانات وغيرها في البر والبحر وما خلق الله في السماء من مجرات بها ملايين النجوم والكواكب وجعلها جميعًا تسبح في الفضاء بنظام دقيق منسق متقن، فإذا نظر الإنسان إلى هذا كله أدرك بديع صنع الله واستنتج من ذلك الإدراك الحسي للموجودات معرفة عقلية بضرورة وجود خالق أوجدها على هذا النحو المعجز. ويقول الله تعالى عن حاسة البصر: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾[1]. الله سبحانه وتعالى يخبر في هذه الآية أنه جاء ببصائر تبصر عباده بوجوده فمن استطاع أن يبصر ذلك بعينه وقلبه وآمن بالله فإن في ذلك الخير كل الخير، ومن عمى بصره وبصيرته فقد ظلم نفسه وما ظلمه الله فإن الله ليس على هؤلاء بحفيظ. وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾[2]. في هذه الآية يشبه الله القوم الذين لم يؤمنوا بوجوده رغم ما حولهم من آيات دالة على هذا الوجود بأنهم كمن استوقد نارا فلما أضاءت ما حولهم فقدوا قدرتهم على الإبصار ولم يدركوا ما حولهم على ضوء النار التي استوقدوها رغم وضوح الرؤية أمامهم.

أما الآيات التي جمع الله فيها بين السمع والبصر فهي عديدة مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[3]. وهذا السمع وهذا البصر في الآخرة عندما يرى الكافرون ما وعدهم الله به من عذاب وما كانوا يكذبون به في الحياة الدنيا فينكسون رؤوسهم ويطلبون من الله أن يعيدهم إلى الحياة ليعملوا عملا صالحا بعد أن رأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم ما كانوا يكذبون به من أمور الآخرة.

ثم هناك النصوص القرآنية التي جمع الله فيها بين المعرفة الحسية والقلبية وذلك في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧.

(٣) سورة السجدة: الآية ١٢.

﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[1]. وفي هذه الآية يصف الله من غفلوا عنه وكذبوا به بأن لهم قلوب لا تفقه وأعين لا تبصر آيات الله الدالة على وجوده ولهم آذان لا تسمع ما جاءهم من الحق وأنهم كالأنعام بل هم أضل.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[2]. وقد جمع الله في هذه الآية الأخيرة بين مصادر الإدراك الحسي من سمع وبصر وما ينتج عنها من استدلال عقلي على وجود الله وأفئدة تستنير بنور المعرفة الذوقية الكشفية جعلها الله سبحانه وتعالى أدوات للمعرفة الإنسانية وإن كان الإنسان قليلا ما يشكر الله على نعمه.

ويحدثنا الله تعالى عن حاسة اللمس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾[3].

ويوضح الله في هذه الآية أن الذين كفروا معاندين لا يؤمنون بالله حتى ولو أنزل على رسوله كتابا في ورقة ولمسوه بأيديهم وتيقنوا من أنه منزل من عند الله لقالوا إن هذا إلا سحر مبين ولم يؤمنوا.

وذكر الحق سبحانه وتعالى حاسة الذوق في مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[5].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٢) سورة السجدة: الآية ٩.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٧.

(٤) سورة قريش: الآيات ٣ – ٤.

(٥) سورة عبس: الآيات ٢٤ – ٣٢.

وفي هذه الآيات الكريمة يأمر الله الإنسان بالنظر إلى طعامه وكيف ينبته الله ويشق الأرض من تحته ويمطر السماء من فوقه حتى ينمو ويصير فاكهة مختلفة الألوان حلوة المذاق، أفلا يعتبر الإنسان من ذلك ويدرك أن الله هو الذي أنعم عليه بهذه النعم !!

وحاسة الشم ندرك بها ما بالثمن الله في الأزهار المختلفة الألوان والأنواع من روائح زكية متعددة وهي على تعددها تحمل كل منها رائحة مميزة والكل ينبعث منه عطرًا ربانيًا زكيًا إن دل على شيء إنما يدل على عظمة الخالق الذي أبدع كل شيء قال تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[١]. وقال تعالى محدثًا عن الروائح الطيبة التي يتميز بها شراب الأبرار في جنات النعيم: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾[٢].

هذه الآيات وغيرها كثيرا يوضح لنا دور الحواس في سماع كلام الله وسماع الأصوات الجميلة التي خلقها الله في بعض مخلوقاته، ودورها في رؤية العالم من حولنا وما به من آيات دالة على وجود الله وما خلق الله فيه من فاكهة وعسل النحل ونباتات مختلفة لها طعم لذيذ ورائحة جميلة وكلها تنطق بعظمة الخالق ودقة صنعه وحكمته البالغة وفضله ونعمه على عباده فصدق الله تعالى حين قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[٣].

وقد جعل الله الجسم الإنساني بما فيه من حواس مشاركا القلب في طاعة الله وأداء العبادات فكلف المؤمن بضرورة الحرص على نظافة بدنه حتى يكون طاهرا قلبا وقالبا.

فإذا كانت الحواس مساعدة على معرفة الله من خلال آثاره فإن جسم الإنسان يشارك في معرفته جل جلاله من خلال عبادته فقد جعل الله الصلاة مؤلفة من الحركات البدنية كالركوع والسجود والوقوف والجلوس للتشهد إلى جانب قراءة القرآن وذلك حتى تسمو الأبدان وتتطهر من أدران الشهوة وتتابع الأرواح القلوب في خشوعها لله

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٨٩.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٥.

(٣) سورة الحج: الآية ٤٦.

وامتثالها لأوامره تعالى ومحاولتها التقرب إليه وبهذا يكون الفرق بينهما وبين أبدان الحيوانات وفي هذا المعنى يقول الشيخ الرئيس ابن سينا: "وهذه الهيئات المؤلفة من القراءة والركوع والسجود الطارئة في الأعداد المنظمة المعينة أثر من الصلاة الحقيقية المربوطة الملتزمة بالنفس الناطقة، وهذا يجري مجرى السياسات للأبدان لانتظام العالم، فهذه الأعداد من جملة السياسات الشرعية كلف بها الشارع إنسانا عاقلا بالغا حتى يشبه جسمه ما تختص به روحه من التضرع إلى جنسه العالي ليفارق البهائم بهذا الفعل"[١].

وعلى الرغم من أن قيمة الحس في معرفة آثار الله وبالتالي وجوده لا يمكن التقليل من شأنها إلا نه ينبغي علينا إلا نعطي الحواس كمصدر حجما أكبر من حجمها فالقدرات الحسية للإنسان على اختلافها من سمع وبصر ولمس وتذوق وشم محدودة، فإمكانيات الإنسان البصرية لا تمكنه مهما بلغت قوتها من أن يرى الأشياء المتناهية في الصغر كما أن لا يرى إلا في درجة كافية من الضوء إذا قلت أو زادت عن معدلات معينة لا يقوى على الإبصار.

كما أن الإنسان لا يرى من وراء حجاب، ويعجز عن رؤية ما يقع على أبعاد تتجاوز قدرته البصرية.

وقس على ذلك جميع حواس الإنسان فإنها جميعا تؤدي وظائفها وهي في كامل قواها في حدود معينة لا تقوى على تجاوزها بل إننا نشاهد من حولنا مخلوقات أقل مرتبة من الإنسان وتتمتع بقدرات حسية تفوق قدرات الإنسان، وذلك لأن ظروفها المعيشية تطلب قدرات أقوى مما لدى الإنسان الذي لا تطلب ظروفه البيئية واحتياجات المعيشية درجة أعظم مما هو عليه، فلك كائن ميسر لما خلق له.

فالصقور لها بصر حاد يساعداه على رؤية الفريسة عن بعد، والكلاب لها قدرة فائقة على الشم أضعاف قدرة الإنسان، والقطط قادرة على رؤية فريستها في الظلام بينما الإنسان لا تتيسر له الرؤية إلا إذا وقع شيء من الوضوء على ما يريد أن يراه.

---

(١) ابن سينا: رسالة الصلاة، ص ٩.

والحيوانات لها قدرة على الإحساس بتقلبات الجو دون الحاجة إلى استخدام الأجهزة كما يفعل الإنسان، والخفاش له من حدة السمع ما لا يتوفر للإنسان.

إذن نخلص من ذلك إلى أن الإنسان يرى ويسمع ويشم ويتذوق في حدود ما منحه الله من قدرات وهي قدرات محدودة وتشهد على ذلك التجربة الحسية.

وإن نقص القدرات الحسية عند الإنسان لا يقلل من أهميتها.

وإن استخدامه للآلات كالميكروسكوب والتليسكوب والسماعات والرادار وغيرها ما هو إلا محاولة من جانب الإنسان لسد النقص الذي أدرك وجوده في حواسه وتيقن أنها لا تسعفه في الكثير من الأحيان والمواقف التي تطلب قدرات أقوى مما يتمتع به، فاخترع العديد من الأجهزة والآلات ليسد هذا النقص.

إن لله حكمة بالغة في أن يخلق البشر على تلك الهيئة وبهذه القدرات الحسية المحدودة، إذ لو كان الإنسان يقوى على الرؤية من وراء حجاب وفي جميع الظروف وعلى كل الأبعاد لكان في ذلك كشف لعورات الناس ولتسبب ذلك في العديد من المشكلات التي لا تخفى علينا، ولو كان الإنسان يسمع بدرجة أقوى مما هو عليه لاختلطت عليه الأصوات وعجز عن تمييزها، ولسمع ما لا يرضيه ويقلقه ويزعجه ولو كانت حاسة الشم لدى الإنسان أقوى مما هي عليه لشعر دائما بالغثيان من جراء ما يشم من روائح نفاذة ومختلطة.

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[1]. وهو سبحانه قد خلق الإنسان وهو يعلم تمام العلم احتياجاته في الحياة من القدرات الحسية وزوده بها في حدود هذه الاحتياجات وله في ذلك حكمة، ثم زوده بالعقل الذي يستطيع به أن يخترع المعدات والأجهزة العلمية التي تمكنه من سد نقص قدراته الحسية ليستعملها فقط في حالة الضرورة فالإنسان في حياته اليومية العادية ليس في حاجة إلى أن يرى ما حوله من ميكروبات وما يلتصق منها ببدنه ومأكله ومشربه وملبسه حتى لا يشعر بالتقزز والاشمئزاز، وإنما يكفيه أن يستخدم الميكروسكوب ليرى تلك الميكروبات عندما

(١) سورة القمر: الآية ٤٩.

يعمد إلى دراستها وملاحظتها بهدف اتقاء شرورها، ومن هنا ندرك أن الله تعالى حكمة بالغة في أن يخلق الإنسان على هذه الصورة وبهذه الإمكانيات الحسية المحدودة.

ومن ثم لا يصح القول بأن كل موجود محسوس كما قال ذلك "توماس هوبز" فهناك من الموجودات ما هو غير محسوس وتعجز مصادر الإدراك الحسي عن معرفته والإحساس بوجوده.

وقد تكشف لنا الأجهزة العلمية الأكثر تطورا في المستقبل عن موجودات نعجز اليوم عن إدراكها حسيا مع قربها الشديد منا، فليس كل موجود محسوس وما أكثر ما حولنا من موجودات لا نشعر بها ولذلك يجب علينا ألا نقف عند الحس كوسيلة وحيدة للمعرفة كما فعل الحسيون خاصة وأن الله قد منحنا العق وميزنا به عن سائر الموجودات فلا بد أن له دور في المعرفة لا يحق لنا أن ننكر ونتجاهله وهذا يقودنا إلى الحديث عن العقل كأداة من أدوات المعرفة بالله.

ثانياً : العقل كمصدر للمعرفة:

ذهب أصحاب المذهب العقلي Rationalism إلى أن الأفكار العقلية الأولية السابقة على التجربة أو البديهيات العقلية الشديدة الوضوح والتميز هي مصدر المعرفة الإنسانية وأن هذه البديهيات العقلية القبلية تتميز بالضرورة Necessity والشمول Universality فالمعرفة العقلية صادقة بالضرورة وقضاياها كلية عامة تصلح في كل زمان ومكان، كالقول بأن "الكل أكبر من الجزء فهذه قضية عقلية أولية بديهية كلية وضرورية الصدق دائما".

وكانت الفلسفة الأوروبية في عصر ديكارت أي في القرن السابع عشر يسودها الاعتقاد بوجود هذه الأفكار الفطرية التي تمثل حقائق بسيطة غير مركبة وحقائق موضوعية غير ذاتية كفكرة الله. النفس، والامتداد وهي تدرك بالحدس العقلي دفعة واحدة من غير مقدمات تسلم إليها وعلى غير فترات متعاقبة... ومنها يستنبط العقل النتائج التي تلزم عنها وبهذا تتألف المعرفة اليقينية(١).

أما المعرفة الحسية فهي في نظرهم معرفة ظنية أو احتمالية وليست يقينية الصدق فالحواس تخدعنا وما يخدعنا مرات فالحقيقة عندهم قائمة في العقل ولا وجود لها خارج العقل، والعقل كما يقول ديكارت أعدل الأشياء قسمة بين الناس وأحكامه مطلقة يقينية(٢) لا شك فيها(٣).

وقد رفض ديكارت ومدرسته المعرفة المكتسبة عن طريق الحواس فالإنسان عندهم لا يتلقى العلم من الخارج بل من عقله هو عن طريق المبادئ العقلية كمبدأ

---

(١) أ. د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص ٣٤٤.

(٢) أ. د. يحيى هويدي: "ديكارت"، وأيضا د. عثمان أمين: "ديكارت".

(٣) يرفض الفلاسفة المعاصرون فكرة اليقين في المعرفة إلا في القضايا التحليلية كقضايا الرياضة التي ليس فيها جديد يضاف إلى علم الإنسان ويحتمل الصدق والكذب أما الأحكام العلمية ذات القضايا التركيبية فهي احتمالية الصدق وليست يقينية. ولمعرفة المزيد في هذا الموضوع ارجع إلى د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص ٣٤٣ وما بعدها.

الذاتية ومبدأ عدم التناقض والأولويات الرياضية كقولنا المساويان لثالث متساويان البديهيات المنطقية كقولنا الكل أكبر من الجزء وكلها توجد في عقل الإنسان سابقة على كل تجربة ويستطيع عن طريقها أن يعرف العالم الخارجي بل يستطيع أن يفرض قوانينه ومبادئه عليه[١].

هذه المبادئ العقلية النظرية البسيطة هي بمثابة الأساس الذي لا شك في صدقه الذي تبنى عليه المعرفة المركبة عن طريق الاستنباط والاستنتاج العقلي فينتقل العقل من فكرة بديهية بسيطة إلى فكرة أكثر تركيبا حتى يصل إلى المعرفة. ولذلك فإن الأحكام الرياضية والمنطق في رأيهم تمثل النموذج الصحيح لما يجب أن تكون عليه القضايا الفلسفية لأنها قضايا يقينية.

وبذلك حرص العقليون على الاستعانة بالمنهج العقلي الاستنباطي في تحصيل المعرفة الإنسانية في العلوم المختلفة[٢].

أما حقائق الوصي فقد نحى ديكارت مجال العقل عنها لأنها في رأيه لا تدرك إلا بمدد من السماء خارق للعادة فارتد بهذا إلى النزعة اللاعقلية في مجال الدين وقد رفضها أتباعه في القرن الثامن عشر وبسطوا سلطان العقل على المجالات التي أبعدها هو عنه[٣] وبذلك رفض العقليون أي طريق للمعرفة غير العقل.

---

(١) أ. د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص ٣٤٣.

(٢) د. يحيى هويدي: مقدمات في الفلسفة العامة، ص ١٠٩.

(٣) د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص ٣٤٥.

دور العقل
في معرفة الله كما جاء في القرآن الكريم:

أسند الحق سبحانه وتعالى دورا كبيرا للعقل في النظر والتأمل في كل ما يحيط به من موجودات والاستدلال منها على وجود الله وهذا يثبت أن العقل السليم قادرا على الاستدلال على وجود الله من آثاره ولذلك الإخلاص الله عباده على النظر العقلي في العديد من آيات الكتاب الحكيم.

ومعرفة الله معرفة قائمة على منهج الاستدلال العقلي تتجلى في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (١).

ومن الآيات القرآنية التي حث فيها الله سبحانه وتعالى الإنسان أن يعمل عقله في الكون من حوله وما به من بديع صنع الله ليستدل على وجوده الأعظم قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٢) سورة النحل: الآيات ١٠ – ١٦.

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[1].

والحق سبحانه وتعالى يستنكر ألا يعمل الإنسان عقله فيما تعج به الأرض من ظواهر طبيعية وموجودات مختلفة، ويعتبر غفلة عقلية وقد أسماها الله عمى القلوب قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾[3].

هذه الآيات وغيرها الكثير يدعو الله تعالى فيها عباده إلى التأمل والنظر العقلي[4] وتلك الآية الأخيرة يلفت الحق سبحانه وتعالى فيها أنظار العقلاء لتكون سفينة للمسافر عبر الصحراء وجعل فيها كل الخصائص والمميزات التي تؤهلها لذلك.

فإذا نظرنا إلى هذه المخلوقات نظرة مدققة وأخذناها كمثال للموجودات التي تحيط بنا والتي يأمرنا الله تعالى بتأملها للوقوف على ما بها من دقة الصنع سنتبين ما يأتي:

١- خلق الله الإبل وزودها بسنام تختزن فيه الماء والغذاء الذي تحتاج إليه أثناء سفرها في الصحراء الجرداء حتى لا تهلك ظمأ أو جوعا.

---

(١) سورة النبأ: الآيات ٦ – ١٦.

(٢) سورة الحج: الآية ٤٦.

(٣) سورة الغاشية: الآية ١٧.

(٤) النظر ينقسم إلى " صحيح يؤدي إلى مطلوب وفاسد يقابله " انظر الإيجي الموقف في علم الكلام ص ٢٢، كما يقسم إلى "جلي وخفي وذلك يرجع إلى صحة أو فساد مادته وصورته" انظر مقدمة "المغني" للقاضي عبد الجبار ص ١٢٧، وتحقيق وتقويم د. إبراهيم مدكور أما المعتزلة فقد عدو النظر حسنا دائما وأنكروا النظر الخاطئ الفاسد. المرجع السابق نفس الصفحة والنظر الصحيح عند جمهور المتكلمين يفيد العلم. ارجع إلى الايجي "المواقف في علم الكلام"، ص ٢٣.

٢- زود الله أطراف الإبل بأظلف مشقوقة تساعدها على السير في رماء الصحراء الغزيرة.

٣- جعل الله الشفاة العليا لتلك الحيوانات مشقوقة حتى إذا أقبلت على أكل النباتات الصحراوية الشوكية لا يمسها أذى.

٤- كسى الله أجسام الإبل بطبقة من الوبر السميك الذي يحميها من قسوة الظروف الجوية في الصحراء شتاء وصيفا.

٥- جعل الله للإبل آذان موسيقية تطرب لسماء الغناء والألحان، وتلك حكمة بالغة من الله لأن الإبل إذا سمعت الحداء حدثت لها حالة نشوة وتطرب ويشغلها هذا الطرب عما تعانيه من تعب أو جوع أو ظمأ فلا تشعر بما تعاني.

ثم لا يقف الأمر عند حد النظر والاعتبار وإنما حث الله الإنسان على الجدل في حدود قدراته العقلية وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (١). وقد طلب من رسوله الكريم أن يجادل الكفار ويقدم لهم الحجج والبراهين العقلية على أمور العقيدة وأوصاه تعالى أن يلتزم في ذلك بآداب الحوار والجدل وأعلمه أن ما عليه إلا البلاغ المبين قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ (٢). وحرم إكراه الناس على اعتناق الإسلام ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (٤) وأنه تعالى لو شاء لجعل الناس أمة واحدة وأن له في اختلاف عقائد الناس حكمة.

ومن الآيات الدالة على اهتمام القرآن بتقديم الدليل والبرهان العقلي قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾ (٥). وقوله تعالى: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ

(١) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٢) سورة الغاشية: الآيات ٢١ – ٢٢.

(٣) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٢٤.

بَيِّنَةٌ﴾ [١]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ [٢]. أي هل لديكم الدليل على صحة هذا. وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [٣].

إن النظر العقلي يلعب دورًا كبيرًا في إثبات وجود الله خالق هذا الكون، ولكن هل للعقل من الإمكانيات والقدرات ما لا حدود له أم أن له حدود لا يستطيع أن يتجاوزها ومن ثم يعجز عن تصور بعض الأمور التي تعد خارج مجال تصوره حيث لا يقوى على تعقلها وإدراكها؟ وهل للعقل قدرة على معرفة ذات الله؟

إن العقل من أعظم الهبات التي وهبها الله للإنسان وميزه بها عن غيره من المخلوقات التي حولنا غير أنه يجب علينا إلا نغالى في تقدير إمكاناته بالدرجة التي تجعلنا نرفض ما يعجز عن تصوره ونعتبره مستحيلاً أو غير ممكن الوجود، إذ ينبغي أن نعطي لكل أداة من أدوات المعرفة حجمها الحقيقي دون إفراط أو تفريط وليس هذا المثل البسيط الذي أضربه للتدليل على أن ما يعجز العقل عن تصوره ليس مستحيلا وهو: لو قيل للإنسان في العصور القديمة أو الوسطى أنه يمكنه الوصول إلى القمر وإنه في إمكانه مشاهدة وسماع من يبعد عنه ملايين الكيلو مترات. هل كان عقله يمكن أن يصور لذلك؟ بالطبع لا.

إن قدرات العقل في ذلك الوقت كانت قاصرة عن تصور مثل هذه الأمور التي كان يعدها العقل الإنساني في ذلك الوقت من المستحيلات، بينما إنسان القرن العشرين يشاهد عن طريق الأقمار الصناعية والإرسال التليفزيوني ما يحدث في أي بقعة في العالم على الهواء مباشرة دون أن يتعجب من ذلك ويرى رواد الفضاء يسيرون على سطح القمر من خلال شاشة التليفزيون دون أن يسترعي ذلك دهشته، وما ذلك إلا لأن عقله استطاع أن يستسيغ تلك الأمور وغيرها مما كان يعجز عن تصورها في الماضي فقدرات الإنسان العقلية صارت أكثر نضجًا وأشد اتساعًا لأن الإدراك العقلي لهذه

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٢.

(٢) سورة يونس: الآية ٦٨.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٤٩.

الأمور اقترن بالإدراك الحسي لها ولأن الله يكشف عن العقل حجابه شيئًا فشيئًا وله في ذلك حكمة، فموضوعات عالم الشهادة التي هي من اختصاص العقل قد يبدو بعضها مستحيلا ثم نصل بعد إلى الوسائل المؤدية إلى معرفة تلك الأمور بعينها وبعد أن يشهد لها الحس بالوجود يصدق بها العقل ويتقبلها بعد أن كان يرفضها ويشك في صحتها.

والحقيقة أن التقدم العلمي نفسه وهو ثمرة المجهودات العقلية والتجريبية لهو أكبر دليل على ذلك فهل بعد لا نزال نصر على أن الأمور التي تفوق قدرات العقل هي أمور مستحيلة بعد أن ضاقت في عالم اليوم دائرة المستحيل واتسعت دائرة الممكن؟

وقد أدرك الحكماء قصور العقل في إدراك حقائق الأشياء إدراكًا كاملاً والفارابي يشير إلى ذلك في قوله: "الوقوف على حقائق الأشياء ليس في قدرة العقل ونحن ما نعرف من الأشياء إلا الخواص واللوازم والأعراض ولا نعرف الفصول المقومة لكل منها الدالة على حقيقتها بل أنها أشياء لها خواص، فإنا لا نعرف حقيقة الأول (يعني الله) ولا النفس ولا الفلك ولا النار ولا الهواء والماء والأرض ولا نعرف حقائق الأعراض[١].

وعند ابن سينا العقل والحس عاجزان عن أن يصلا إلى المعرفة التي لا تدخل في قدراتهما وتتجاوز حدودهما تلك المعرفة لا يكون السبيل إليها إلا بالنفوس البشرية المطمئنة المتطهرة التي تتلقى عن الله دون واسطة من حس أو عقل فتشرق عليها الأنوار القدسية فتسعد بها سعادة أبدية[٢].

والغزالي يرى عن تجربة أن وراء طور العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما يكون في المستقبل وأمور أخرى العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عند إدراك المعقولات وكعزل قوة لاحس عن إدراك التمييز[٣].

---

(١) انظر: الفارابي، التعليقات، مطبعة حيدر أباد الدكن، ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م، ص ٧.

(٢) ابن سينا: رسالة الفردوس، مخطوط بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة تحمل رقم ٣٩٨، مجاميع حكمة ل ٩٣.

(٣) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٣٤.

أما الفيلسوف "ألبرت اشفيتر"[١] فيرى أن كل عقيدة ثمينة لا يمكن استمدادها من معرفة العالم بل تنشأ من التجربة التفكيرية التي تقوم بها إرادتنا للحياة والتي نتجاوز بها طور كل معرفة للعالم وتلك هي الحقيقة التي يدركها الفكر العقلي على أنها حقيقة يجب أن نعيش بها، وأن الطريق إلى التصوف الحق يقود إلى تجربة عميقة للعالم ولإرادتنا الحياة وعلينا جميعًا مرة أخرى أن نكون مفكرين بحيث نصل إلى التصوف الذي هو النظرة المباشرة العميقة الوحيدة في العالم وبحيث علينا أن نتحول في ميدان المعرفة إلى النقطة التي تنتقل فيها المعرفة إلى تجربة للعالم إلى تجربة للعالم ولا بد لنا جميعا أن نصبح دينيين من خلال الفكر[٢].

وقد استثنى ديكارت من منهجه العقلي كل حقائق التنزيل واعتبرها فوق متناول الفعل، وجعل الإيمان بها من أعمال الإرادة وليس من أعمال الذهن وأصبح ميدان العقل عنده لا يتجاوز الحقائق الفلسفية.

أما الحقائق الدينية التي تهدي إلى الجنة فإنها فوق متناول العقل وليس من الحكمة أن نسلمها إلى ضعف استدلالاتنا العقلية لأنها بمدد غير عادي من السماء أو بوحي ينزل من الله على من يصطفيه من عباده[٣].

=

وانظر أيضا كتاب مهرجان الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، مقالة د. محمد ثابت الفندي، ص ٩٨ – ٩٩.

(١) فيلسوف ألماني معاصر ولد سنة ١٨٧٥ وتوفى سنة ١٩٦٥، وهو فيلسوف أخلاقي ومرشد روحي يدعو إلى حب الإنسانية قولا وفعلا ومبدؤه الأساسي هو توفير الحياة. انظر مقدمة كتاب د. عبد الرحمن بدوي "فلسفة الحضارة".

(٢) د. عبد الرحمن بدوي: فلسفة الحضارة، ص ١٠١.

(٣) ارجع إلى د. توفيق الطويل: قمة الصراع بين الفلسفة والدين، الطبعة الثالثة، ص ١٩٢.

ثالثاً : القلب كأداة للمعرفة:

أن الذين يقولون بالقلب كأداة أو منهج للمعرفة هم الصوفية[١] فقد ذهبوا إلى أن القلب الصافي الذي توجه مخلصا إلى الله بعد تنقيته وتصفيته من أدران الشهوة والهوى[٢] وشوائب النفس الأمارة بالسوء وتحليته بمكارم الأخلاق يصير أهلا لتجلي أنوار الحق عليه.

---

(١) التصوف نوعان أحدهما ديني والآخر فلسفي. فالتصوف الديني ظاهرة مشتركة بين الأديان جميعا سواء في ذلك الأديان السماوية أو الأديان الشرقية القديمة والتصوف الفلسفي قديم عرف في الشرق وفي التراث الفلسفي اليوناني وفي أوربا في عصريها الوسيط والحديث.

ولم يخل العصر الحاضر من فلاسفة أوربيين ذوي نزعة صوفية مثل "برادني" في إنجلترا و"برجسون" في فرنسا.

وكان التصوف الديني يمتزج أحيانا بالفلسفة كما هو الشأن عند بعض صوفية المسيحية والإسلام وكذلك كان يحدث امتزاج أحيانا عند فيلسوف من الفلاسفة بين النزعة العقلية والنزعة الصوفية. فقد لاحظ "برتراند رسل" في بحث له تحت عنوان "التصوف والمنطق" (Mysticism and Logic) أن من الفلاسفة من أمكنه الجمع بين النزعة الصوفية والنزعة العلمية ورأى في ذلك الجمع أو التوفيق بين النزعتين سموا فكريا جعل من أصحابه فلاسفة بالمعنى الصحيح فيقول ما نصه "إن أعظم الرجال الذين كانوا فلاسفة شعروا بالحاجة إلى كل من العلم والتصوف إذ العاطفة الصوفية هي الملهم الأعظم ما يكون للإنسان.

انظر: أ. د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، الطبعة الثانية، ص ٤.

وانظر:

Russell B.: Mysticism and Logic, Selected Papers The Modern Library, New York, ١٩٢٧, pp. ٢٦-٥٥.

(٢) هناك فرق بين الأهواء والشهوات فالأخيرة تعني كل ما اقترن بلذة حسية لكل عضو في البدن له أغراض يشعر الإنسان بلذة إشباعها إذا ما أطلق لنفسه العنان في إشباع لذات بدنه أدى به ذلك إلى الانغماس في حياة مادية خالصة كحياة الحيوانات، وأما الهوى فهو ميل النفس إلى تحقيق رغباتها وهو لا يقتصر على تحقيق الرغبات الحسية بل ينزع إلى لذات من نوع آخر كلذة التسلط والقهر وحب الرئاسة والسيطرة وحب الظهور والكبرياء والحقد والحسد وغيرها. انظر ابن سينا: رسالة الأخلاق ضمن مجموعة تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، الطبعة الأولى، ص ٣.

والمنهج القلبي عند الصوفية هو أصدق المناهج للوصول إلى معرفة الله معرفة ثابتة. ولا غرابة في ذلك فالقلب كما وصفه الغزالي: "هو العالم بالله، وهو المتقرب إليه، وهو العامل لله وهو الساعي إليه، وهو المكاشف بما عنده، وهو المقبول عند الله إذا سلم من غيره وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقًا بغيره وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب"(١).

كما أن القلب هو العاشق لله وهو المشتاق إليه وهو الخاشع لجماله وجلاله وهو محل النقاء والصفاء ولهذا فإن اقلب أقدر على معرفة الله من الحس والعقل.

وقد أشار الغزالي إلى ذلك في كتابه "المنقذ من الضلال" حيث يذهب إلى أن العلم اليقيني لا يكون عن طريق الحواس أو العقل وإنما يكون عن طريق القلب ويعرفه بأنه "العلم الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقاربه إمكان الغلط، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانة من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا أو إنكارًا"(٢).

والسبيل إلى حصول المعرفة يتأتى بمحاربة الشر في النفس وتغليب جانب الخير عليه وإخضاع النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنة والتحكم في شهوات النفس وأهوائها، والزهد في الدنيا والإقبال على الله فالتخلي عن الدنيا – في رأي الغزالي "هو الدواء المر ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة وبقيت العلة وصار الداء عضالاً". وتخلية القلب من كل الصفات الذميمة وتحليته بالصفات الحميدة حتى يتحقق صاحبة الكمال الأخلاقي وتضعف بشريته وتقوى روحانيته ويصير أهلا لتلقي المعرفة الذوقية من لدن الله تعالى.

والسالك طريق الصوفية يجاهد نفسه بالرياضات العملية كالصلاة على أن يكون حاضرا مع الله بقلبه والصوم والذكر والسماع والعزلة والخلوة والصمت والجوع

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، ط ٣، ص ٢.

(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال، طبعة مكتبة النشر العربي، ص ٢٩.

والسهر والسياحة في الله وغيرها من الرياضات العملية وهو في أدائه لتلك العبادات يحرص على تحقيق الغرض منها من ترقيق القلب وتصفية النفس وسياستها والتحكم فيها ومراقبتها وحضور القلب مع الله والتحلي بالخشوع والهيبة والخوف من الله والتضرع له ومناجاته والتقرب إليه. وتخلية القلب عمن سواه والإخلاص في التوجه إليه وصدق النية والشوق إلى حضرته والأنس به تعالى.

ويعين على ذلك قوة اليقين وشدة الإيمان وسد الحواس وعدم التفكير في الهموم الدنياوية.

والصوفي أيضًا حريص على الرياضات الروحية التي تزكي نفسه وتجعل منه إنسانا روحانيا أقرب إلى الملائكة منه إلى البشر فمجاهد للتحقق بمقامات السلوك الصوفي كالتوبة، والزهد، والصدق، والإخلاص، واليقين، والمراقبة، والمحاسبة، والإحسان، والصبر، والتوكل، والمحبة وغيرها من مقامات السلوك الصوفي التي يتدرج فيها السالك كلما تحقق بمقام منها ارتقى إلى مقام آخر على يد شيخ من شيوخ الصوفية الكُمّل الواصلين يرشده ويعلمه ويقتدي به ويكون عونا له على تخطي ما قد يعوقه عن مواصلة السير في الطريق إلى الله.

والسالك طريق الصوفية تعتريه أحوال سريعة الزوال يشعر خلالها بمشاعر وأحاسيس تغمر وجدانه وتملك عليه كل كيانه كحال القرب، وحال الأنس، وحال القبض، وحال البسط، وحال الفناء، وحال الاتصال وغيرها.

إذن هو طريق الإخلاص في الرياضات العملية والروحية وبإرشاد الشيخ للمريد يعينه على أن يتحقق بالكمال الأخلاقي ويتطهر سره ويصفو قلبه ويصير مهيئًا لتقبل المعرفة الذوقية ويكون ذلك في حالات خاطفة عندما يعمد السالك إلى الذكر مثلا وهو منصرف الذهن عما سوى الله ولا يزال يردد عبارات الذكر مثل الله. الله. أو لا إله إلا الله، أو سبحان الله أو غيرها وهو متفكر في الله وغافل تماما عمَّا سواه فيملك عليه الحق شعوره ووجدانه وقلبه وتسيطر فكرة الله على بؤره شعوره الذاكرة وتغلب على ما عداها من أفكار ثم يكف اللسان عن الذكر ويبقى ذكر القلب ويستغرق الذاكر في المذكور

فيفنى عما حوله ثم يفنى عن نفسه ويبقى بالله، وفي هذه اللحظات الخاطفة في حال الفناء يتم الاتصال الروحي بين العبد وربه فيفيض الله على قلب عبده الواصل إلى حضرته المعرفة الذوقية النورانية فيضا مباشرا من لدن الله دون واسطة من حس أو عقل.

يقول الغزالي: " كل حكمة تظهر في القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهي بطريق الكشف والإلهام"(١). ويقول: "اعلم أن أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل "الإلهام" بأن يخطر لهم على سبيل الورود عليهم حيث لا يعلمون وتارة على سبيل "الرؤيا الصادقة". وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة كما يكون في المنام. وهذا أعلى الدرجات وهي من درجات النبوة العالية"(٢).

وقد حاول الغزالي توضيح الكشف الصوفي وتبسيطه حتى يسهل تصوره فشبه قلب الصوفي الوصل إلى الحضرة الإلهية بالمرآة المجلوة وشبه اللوح المحفوظ بالمرآة أيضًا وأنه في حالة الفيض الإلهي ينعكس على مرآة القلب بعض ما هو منقوش على مرآة اللوح المحفوظ من الأسرار والمعارف الإلهية يقول الغزالي في ذلك: "إن القلب مثل المرآة واللوح المحفوظ مثل المرآة أيضًا لأن فيه صورة كل موجود وإذا قابلت المرآة بمرآة أخرى حلت صورة ما في أحدهما في الأخرى، وكذلك ظهور صور ما في اللوح المحفوظ إلى القلب إذا كان فارغا من علائق الحواس، طالع جواهر عالم الملكوت فظهر فيه بعض الصور التي في اللوح المحفوظ وإذا أغلق باب الحاس كان بعده الخيال، لذلك يكون الذي يبصره تحت ستر القشر (أي مستورًا بالصورة الخيالية) وليس كالحق الصريح مكشوفا فإذا مات القلب يموت صاحبه (أي إذا فنى القلب بفناء صاحبه) لم يبقى الخيال ولا حواس وفي ذلك الوقت يبصر بغير وهم وغير خيال ويقال له: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾(٣)(٤).

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ ٣، ص ٢.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ ١، ص ٨٢.

(٣) سورة ق: الآية ٢٢.

(٤) الغزالي: كيمياء السعادة، ص ٨٧ – ٨٨.

إذن المنهج الذي اصطنعه الصوفية لمعرفة الله هو المنهج الكشفي الذوقي وهو إدراك وجداني مباشر. وقد سمى منهجًا كشفيًا لأن الله يكشف فيه لعباده الواصلين إلى حضرته من المعارف ما تعجز عنه الحواس والعقل وفي ذلك يقول الطوسي: " الكشف بيان ما يستتر على الفهم فيكشف عنه للعبد كأنه رأي عين"[١].

ويقول ابن سينا: "الحس تصرفه فيما هو من عالم الخلق والعقل تصرفه فيما هو من عالم الأمر وما فوق الخلق محتجب عن الحس والعقل وليس حجابه غير انكشافه كالشمس فليس احتجابه تعالى عن عباده لكونه غير ظاهر وإنما لقصورهم عن إدراكه فلا حجاب إلا في المحجوبين"[٢].

وقد جعل الإمام الغزال المعرفة بالله مرادفة للإيمان ولذلك رتب درجات المعرفة بالله كما يلي:

١- **المرتبة الأولى**: إيمان العوام وهو إيمان التقيد المحض.

٢- **المرتبة الثانية**: إيمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته عند الغزالي قريبة من درجة إيمان العوام.

٣- **المرتبة الثالثة**: إيمان العارفين وهو الشاهد بنور اليقين، وكلما كان الإيمان بالله قويا كلما زادت درجة صاحبه من المعرفة اليقينية بالله[٣].

ثم يضرب الغزالي مثالا لتلك المراتب الثلاثة من الإيمان فيقول: "ونبين لك هذه المراتب بمثال وهو أن تصديقك يكون زيد مثلا في الدار له ثلاث درجات"[٤].

الأولى: أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب بوجوده في الدار فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع وهذا هو الإيمان بمجرد التقليد وهو مثل إيمان العوام الذين سمعوا من آبائهم بوجود الله فصدقوا ما سمعوا به.

---

(١) الطوسي: اللمع، ص ٤٢٢.

(٢) ابن سينا: رسالة القوى الإنسانية وإدراكاتها، مطبعة كردستان، ص ٢١٣.

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ ٣، ص ١٥.

(٤) نفس المرجع السابق.

والثانية: أن تسمع صوت زيد من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل من ذلك على كونه في الدار وهي درجة أعلى من السابقة وأكثر يقينا لأن سماعك للصوت دليل على وجود صاحبه وهذه الدرجة من الإيمان ممزوجة بدليل ويمكن أن يتطرق إليه الخطأ فقد يكون من بالدار ليس زيد وسمعت صوت يقلده أو قريبا من صوته إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لأنه لا يقدر هذا اللبس ولا يضعه في اعتباره وهي معرفة المتكلمين أو علماء الكلام والفلاسفة.

والثالثة: أن تدخل الدار بنفسك فتنظر إلى زيد بعينك وتشاهده وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية وهي تشبه معرفة المقربين والصديقين لأنهم لا يؤمنون إلا عن مشاهدة ويكون إيمانهم أقوى من إيمان العوام والمتكلمين[١].

وأخص ما يميز المعرفة الذوقية الشهودية[٢] أنها معرفة خاصة نتيجة تجربة شخصية وهي ليست شيئًا مشتركا بين الناس جميعا، كما تمتاز بأنها معرفة مباشرة من الله تحدث في ومضة سريعة في حال الاتصال الروحي بين العبد وربه ويصعب التعبير عنها بألفاظ اللغة ومن ثم يستعمل الصوفية الرمز في التعبير عن معارفهم وأحوالهم وهي سر من أسرار الله يفضي به إلى خاصة المقربين إليه وتفضي إلى سعادة غامرة لا يعرف حلاوتها إلا من ذاقها وخاض التجربة بنفسه ولذلك قيل: "من عرف الله صفا له العيش، وطابت له الحياة وهابه كل شيء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله[٣].

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) انظر: د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص ٩ – ١٠.

(٣) القشيري: الرسالة القشيرية: تحقيق د. عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، جـ ٢، ص ١٠٤.

دور القلب

في معرفة الله كما جاء في القرآن الكريم:

أشار الله في كتابه العزيز إلى المنهج القلبي في معرفته سبحانه في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[١]. فمعرفة الله عن طريق العق هي معرفة من يستشهد بالخلق على وجود الخالق. أما معرفة الله عن طريق القلب فهي معرفة من يشهد بالحق ولا يشهد عليه.

ولا شك أن معرفة الله القائمة على الشهود الذوقي هي أصدق المعارف وأثبتها يقول الحق سبحانه وتعالى عن أصحابها: ﴿أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[٢].

والآيات القرآنية التي تحدثنا عن المعرفة القلبية كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾[٥].

وإذا كان قلب المؤمن يتسع لمعرفة الله تعالى ومعرفة الأمور الغيبية، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ﴾[٦].

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٢.

(٤) سورة التغابن : الآية ١١.

(٥) سورة الزمر: الآية ٢٢.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [1]. فإن قلب المؤمن أيضًا يتسع للإيمان بالأمور الغيبية التي أخبرنا بها الحق تبارك وتعالى في كتابه الكريم وهي الأمور السمعية أو السمعيات وهذا سوقنا إلى الحديث عن النص المنزل كمصدر للمعرفة.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

رابعاً : النص المنزل كمصدر للمعرفة:

سبق الإشارة إلى تعدد موضوعات المعرفة واختلافها فمنها ما هو في عالم الشهادة وهو من اختصاص الحس والعقل ومنهاما هو في عالم الغيب وهذا يدرك بالقلب والخبر المنزل ولا شك أن الخبر المنزل يتعرض أيضًا لأمور كثيرة في عالم الشهادة منها على سبيل المثال المعاملات وهي الأحكام الفقهية التي وردت بالكتاب والسنة والتي تختص بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان في شتى المعاملات الإنسانية ومنها أيضًا الجانب المتعلق بالأخلاق العملية للإنسان وما ورد بصددها في الخبر المنزل من أوامر ونواهي الإلهية.

أما المعرفة الخاصة بعالم الغيب والتي حدثنا بها الحق سبحانه وتعالى في النصوص القرآنية هي القضايا السمعية التي لا تثير الإنسان إلا عن طريق إخبار منزل من الله، ومن تلك الأمور "ميثاق الفطرة" الذي أخبرنا الله فيه أن معرفته تعالى مفطورة في النفس الإنسانية وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[1]. ففي هذه الآية الكريمة يخبرنا الله تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم وأنه لا إله إلا الله. فعندما خلق الله آدم وخلق من ظهره حواء مسح على ظهر آدم واستخرج نفوس بني آدم واطلعها على وجوده ووحدانيته منذ بداية الخليقة، فعرفت الله.

وهذا يعني أن معرفة الله مفطورة في الإنسان وعندنا يتهيأ البدن المناسب لكل نفس من هذه الأنفس تحل فيه، غير أن كثافة المادة أو البدن وانغماس الإنسان في الاستجابة لمطالبه المادية البدنية التي لا تنتهي يمثل حجابا كثيفا بين نفس الإنسان وبين نور هذه المعرفة الفطرية، ولذلك فقد أرسل الله الرسل يذكروا بني آدم بوجوده تعالى ووحدانيته وأهمية التقرب إليه والتعبد له والطرق إلى ذلك التقرب وتلك العبادة.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

كما أخبرنا سبحانه عن أسمائه الحسنى لندعوه بها وأنه سبحانه ليس كمثله شيء وأن قدرته ليس لها حدود وأن لا شيء يعجزه وإنه قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء وإنه خالقا لكون بما فيه وإنه ينظمه ويسيره إلى أن تقوم الساعة وأنه سبحانه غير حال في الكون بل متعالى عليه، وإنه تعالى متصف بصفات الكمال صفات الذات وصفات الفعل.

وأخبرنا الله عن أشراط الساعة وأنواعها وعذاب القبر والصراط والميزان والجنة والنار، وأخبرنا أن كل شيء يجري بقضاء الله وقدره وأنه تعالى يملك الأرض والسماء وله الأمر والنهي، وإذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، وإنه باعث الأنبياء والرسل وإنه خالق الأكوان والملائكة والجان، وأنه أسرى بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى السماء السابعة.

تلك الأمور السمعية وغيرها كثير ما كان لنا أن نعرفها لولا أخبار الله سبحانه وتعالى لنا بها وهي أمور يعجز العقل في كثير من الأحيان عن تصورها ولا سبيل إلى تصديقها إلا بالقلب المؤمن بالله وكتبه وملائكته ورسله.

ويحدثنا الشيخ محمد متولي الشعراوي عن دور الخبر المنزل في معرفة الله ومعرفة الأمور الغيبية وأن تلك الأمور ليست في متناول العقل فيقول: "ولكن العقل أيستطيع أن يدرك من هذه القوة اسمها؟ أيستطيع أن يدرك من هذه القوة صفاتها؟ أيستطيع أن يدرك بعقله متطلبات هذه القوة؟ وما الذي ينتظره حين يخالفها؟ لا شيء من ذلك من عمل العقل أبدا وإنما عمل العقل أبدا ينتهي إلى تعقل قوة أعلى منه سخرت له ما هو أقوى منه. هذه القوة يكفي منها أن تتعقلها أيها الإنسان، أما أن تتصورها على أي كيف هي فذلك ليس من مهمة العقل. إذن فالقوة تعبر عن نفسها اسما لها وصفات لها ومهمة ترتبط أنت بواسطتها ونهاية تصبو إليها وجزاءً يترتب على امتثالك أو على مخالفتك كل ذلك ليس من عمل العقل ولذلك أن هذا هو الرد المنطقي"[1]. إذن لا بد من تبليغ سماوي من الله عن هذه القوة وهي الله سبحانه وتعالى. هذا التبليغ يقوم به

(١) كتاب هذا هو الإسلام: الطبعة الأولى، ص ٨٨ – ٨٩.

ملك مصطفى من الملائكة إلى إنسان مصطفى من البشر ولذلك قال الصوفية أن الدليل على الله هو الله وحده[١].

وتلك الأمور السمعية التي عرفت عن طريق الخبر المنزل لا يقوى العقل على تصورها وإنما يكون الإيمان بها عن طريق القلب فهناك صلة وثيقة بين الإيمان القلبي والتصديق بالخبر المنزل من السماء، فإذا كان عقل الإنسان لا يتسع لتصور هذه الأمور الغيبية التي يخبرنا الله بنا عن طريق الرسل فإن قلب المؤمن يتسع لها أن القلب الطاهر المستنير بنور الإيمان له بصيرة نافذة لا تتوفر للحس ولا للعقل ولذلك قال تعالى ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ ﴾[٢].

وإذا كان الإيمان القلبي بالله وبقدرته التي لا حدود لها على الخلق والإبداع قضية أولى يسلم بها المؤمن فعليه إني تقبل ما يترتب على هذا الإيمان والمعرفة بالله من قضايا أخرى وهي الأمور الغيبية أو السمعيات التي أخبر بها الحق سبحانه وتعالى والتي يتقبلها المؤمن ويصدق بها تصديقا قلبيا دون أن يناقشها أو يشك في صحتها لا لشيء إلا لأن الله سبحانه وتعالى قد أخبر بها في كتابه الكريم.

تلك القضايا السمعية إذا نظر إليها الإنسان غير المؤمن نظرة عقلية فإن عقله يرفضها ولا يتقبلها ولا يصدقها فكيف له أن يتقبل – وهو غير مؤمن بوجود الله وبقدرته وبأنه يقول للشيء كن فيكون – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يسري به إلى بيت المقدس ثم يعرج إلى السماء السابعة وهو غير مهيأ لهذا من وجهة نظرهم؟ فكيف له أن يسافر بين أقطار السموات والأرض وهو ليس بداخل مركبة فضائية مجهزة لذلك وغير مرتدي لحلة الفضاء اللازمة لكي يتحمل اختلاف الجاذبية واختلاف الضغط الجوي ودرجات الحرارة أو البرودة وغيرها وهو أيضًا غير مزود بكمية كافية من الأوكسيجين اللازم للتنفس وغير ذلك من الأشياء الضرورية التي لا غنى عنها لمن يرتاد الفضاء

---

(١) أبو بكر الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق د. عبد الحليم وطه عبد الباقي سرور، مطبعة عيسى الباب الحلبي، القاهرة، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م، ص ٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٦.

الخارجي، ثم كيف له أن يعقل أن من أشراط الساعة أن تشرق الشمس من المغرب بعد أن ألف على مر الزمان شروقها من المشرق؟ وكيف له أن يصدق أن دابة تخرج على الناس وتكلمهم وتعجب إنهم لم يستطيعوا أن يعقلوا وجود الله وأن يؤمنوا به رغم ما حولهم من أدلة وشواهد على ذلك؟

أن الأمور السمعية كثيرة وهي قضايا يسلم المؤمن بصحتها كما سبق القول بناء على إيمانه بقدرة الله على الخلق والإبداع وأنه تعالى لا يعجزه شيء ولا تقاس قدرته بقدرة الإنسان الذي هو دائما في حاجة إلى الأسباب لنقصه وعجزه، أما غير المؤمن فإنه يعتبر السمعيات أمور خارجة عن دائرة العقل ومستحيلة الحدوث وإذا كان على الإنسان أن يسلم بها فلا بد أن يلغي عقله أولا ثم يصدق بها ثانيا. ومن هنا ادعى من لا يعرف الله أن الإيمان به تعالى والإيمان بكتبه وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره يتطلب إلغاء العقل فالمؤمن في نظرهم إنسان واهم يعيش في وهم كبير.

أن الله سبحانه وتعالى لم يأمرنا بإلغاء العقل ولم يهب العقل للإنسان وميزه به على سائر الموجودات الأخرى لكي يلغي وجوده ولم يخلق الله العقل للإنسان عبثا وقد سبق أن أوضحنا في حديثنا عن المعرفة العقلية كيف عول الله سبحانه وتعالى على قدرة الإنسان العقلية في النظر والتأمل. وقد اتضح لنا بالاستعانة بالآيات القرآنية أن الله تعالى يأمرنا بأعمال العقل للاستدلال على وجوده غير أننا – وهذا هو المهم – كنا نؤمن بقدرة العقل على النظر والتأمل والتصور والاستدلال والبرهنة والاستنتاج علينا، ألا نغفل أن هذا العقل الإنساني مهما بلغت قدراته وإمكانياته فهي محدودة كما سبق وتبينا ذلك. وعلينا أن ندرك أيضًا أنه ليس كل ما يفوق قدرات لاحس والعقل الإدراكية يعد من المستحيلات هذه حقيقة يجب ألا نغفلها، وهذه هي القضية التي إذا سلم الجميع بها وأدركوا صحتاه انتهت مشكلة المكذبين بوجود الله أصحاب مذهب الإلحاد Atheism وهو مذهب لا يؤمنون بالروحانيات Pneumatology وهذا يقودنا إلى أن يكون لنا وقفة مع هؤلاء المكذبين تحدثهم فيها بمنطق العقل ولن اتبع الطريقة التقليدية في تقديم الأدلة والبراهين العقلية على وجود الله فهذه تزخر بها كتب الفلاسفة

والمفكرين من قدامي ومحدثين وإنما أقول لهم تعالوا بنا نتسأل ما جدوى ألا يعرف الإنسان ربه ويكفر بوجوده تعالى. هل لأنه يريد أن يتبع المنهج الحسي في أبحاثه ودراساته العلمية أو يتبع منهج الحسي والعقلي معا ليصل إلى مزيد من التقدم العلمي وأن إيمانه بالله سيقف حجر عثرة في طريقه؟ لا فإن الإيمان لا يتنافى مع استخدام المنهج العلمي ولا يحرم العلم، فعلى كل إنسان أن يعمل عقله وأجهزته ليصل إلى ارقى درجات التقدم العلمي ولا حرج عليه في ذلك فالله لم يحرم العلم ولم ينه عن البحث في شتى فروع المعرفة، وإنما على العكس رفع الله من شأن العلم والعلماء في آيات عديدة في كتابه الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. فالله لا يسوي بين العالم وغير العالم إنما جعل للعلماء منزلة خاصة ويكفي العلماء شرفا أن الله جعل شهادتهم تأتي بعد شهادة الملائكة في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾[2]. بل أن الله سبحانه وتعالى يرفع درجات الذين آمنوا والذين أتوا العلم قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[3]. وذلك لأن العلماء كلما أمعنوا النظر في علومهم العملية والنظرية وكلما وقفوا على دقائق الأمور في موضوعات أبحاثهم أيقنوا إنه لا يمكن أن تكون الأشياء بهذه الدقة وهذا النظام المقنن وبتلك المقادير والنسب المحكمة بمحض الدقة، وإنما لا بد أن تكون بتدبير محكم وإبداع خارق في الخلق والتنظيم ولذلك قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[5]. وأن هؤلاء العلماء أكثر

(١) سورة الزمر: الآية ٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨.

(٣) سورة المجادلة: الآية ١١.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٤٣.

(٥) سورة سبأ: الآية ٦.

الناس خشية لله لما عرفوا من الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (١). وأول آية نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يحدثه الله فيها عن العلم الذي علمه للإنسان في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ (٢).

إذن العلم يجب أن يكون دافعا لتثبيت الإيمان وليس حجة للتشكيك في وجود الله ويكفي نظرة مدققة في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن للوقوف على الآيات القرآنية العديدة التي ورد فيها لفظ علم وعلماء لنستدل من ذلك على موقف الإسلام من العلم.

وإذا كان الإيمان لا يقف في طريق التقدم العلمي في مختلف العلوم النافعة وهي غاية العقل الإنساني والبحث العلمي فما المانع من أن يكون الإنسان عالما ومؤمنا في ذات الوقت خاصة وإن للإيمان آثار نفسية واجتماعية وأخلاقية عظيمة لا ينكرها المؤمن وغير المؤمن على السواء.

وعلى المؤمنين بالله أن يرتقوا سلم التقدم الحضاري فكلما زاد التقدم العلمي كلما انكشف أمام الحس والعقل أمور وأسرار كانت مجهولة غير متصورة الوجود عقليا وغير مدركة حسيا وهذه بعينها فيها دلالة قاطعة على أن هناك من الموجودات ما لا يدركه الحس ولا يتصوره العقل. والعلم يكشف لنا عن هذه الموجودات شيئًا فشيئا وكلما تقدم العقل كلما تيقنا من أن أحكامنا المتسرعة بأن كل موجود محسوس خطأ يجب أن نعيد النظر فيه وقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ (٣). فعملية الخلق مستمرة لا تتوقف وسيخلق سبحانه وتعالى في المستقبل موجودات لا نعرفها الآن وقد لا تتصور وجودها ولا أدل على ذلك من أن علم الهندسة الوراثية في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا بلغ من التقدم مبلغا جعله قادرا على أن يقدم لنا مخلوقات تحمل صفات الإنسان والحيوان وإنتاج سلالات جديدة غير معروفة لنا من خلال عمليات التهجين

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٢) سورة العلق: الآيات ١ – ٥.

(٣) سورة النحل: الآية ٨.

وقد تقدم هذا العلم في السنوات الأخيرة وسيأتينا بما كان العقل البشري لا يتصور وجوده وعلينا أن نستبصر من هذه الأشياء ونعتبر وندرك أن العقل قد لا يتصور أشياء والعلم يثبت لنا كل يوم من العجائب ما لم يكن في قدرتنا تصورها، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾ (١).

ويقول الغزالي في عدم تناقض العلوم العقلية مع العلوم الشرعية " وظن من يظن أن العلوم العقلية مناهضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعذر عن الجمع بينهما فيظن أنه تناقض في الدين فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين، وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقضا وهيهات(٢). وقد ضرب الغزالي مثلا لمن لا يستطيع أن يدرك أن الإيمان بالله والاشتغال بالعلوم الدينية لا تتعارض مع البحث العلمي والاشتغال بالعلوم العقلية فيقول " وإنما مثله – أي الذي يرى تناقضا في الجمع بين العلم والإيمان – مثال الأعمى الذي دخل دار قوم فتعثر فيها بأواني الدار فقال لهم، ما بال هذه الأواني تركت على الطريق لم ترد إلى مواضعها، فقالوا له تلك الأواني في مواضعها وإنما أنت لست تهتدي إلى الطريق لعماك، فالعجب منك أنك لا تحيل عثرتك على عماك، وإنما تحيلها إلى تقصير غيرك فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية"(٣).

وقد جاء على لسان الدكتور رشدي فكار أن الحضارة الإسلامية العربية هي أول ما يلفت نظر الغربي الرافض الذي استسلم للأباطيل والأساطير فاكتشف وهو في ذهول أن الإنسان يمكنه أن يكون مؤمنا ويفكر، وجد الأوربيون بشرا يؤمنون ويفكرون في

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٤.

(٢) ارجع إلى إحياء علوم الدين، جـ ٣، ص ١٧.

(٣) نفس المرجع السابق.

العمران وشتى العلوم ويركز فكرهم على الوحي، وفي نفس الوقت لا يصادر العقل وهنا بدأت صحوتهم العقلية"[١].

والحقيقة أن الدين الإسلامي لم يحرض دين مثله على طلب العلم واستخدامه لسعادة الإنسان وعدم إعمال الإنسان فكره يعد معصية من المعاصي لأن الله في أكثر من موضع يحث على إعمال العقل، وغذا كان الدين هو الإجابة على لماذا؟ فإن العلم هو الإجابة على كيف؟ وكل منهما مطلوب للإنسان والإسلام دين المادة والروح معًا والدين هو الرصيد الإيماني الذي نستطيع من خلاله تحمل أعباء الحياة وهمومها.

فما أجمل أن يشعر الإنسان بوجود قوة عظيمة يمكن أن يركن إليها وقت الحاجة وقادرة على مساعدته في وقت الشدة ولا تعوزها الأسباب في دفع الخطر عنه وفي حمايته وإعادة السكينة والصبر إلى نفسه وقلبه إذا ألم به مكروه أو نزلت به نازلة أن الإيمان بالله ومعرفته له عمق نفسي بعيد ولذلك وصف الله نفس المؤمن بأنها مطمئنة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾[٢]، هذا الرضا وهذه الطمأنينة يفتقدها الإنسان الكافر ولذلك فإن المجتمعات التي يستشرى فيها الإلحاد تكثر فيها الأمراض النفسية والعصبية ويشعر أهلها بالقلق والاكتئاب وينتهي بهم الأمر في بعض الأحيان إلى التخلص من حياتهم بالانتحار، وهذا يبين لنا أهمية معرفة الله بشتى وسائل المعرفة وإنه علينا ألا نأخذ الأمور بظواهرها وإنما نبحث فيما وراء الظاهر بعد أن نستدل من الظاهر أيضًا وجود الله وعلينا أن نواصل السير في الطريق إلى الله دون توقف وأن نتبع هدى الله وأن هذا سيكون دافعًا لنا للحاق بركب الحضارة والتقدم العلمي ويقول الشيخ محمد متولي الشعراوي في هذا الصدد: " فمن أراد أن تنهض أمته الإسلامية فعليه أولا أن يثبت الإسلام في نفوس المسلمين وأن يجعلهم يزهون بدينهم وإيمانهم.

---

(١) جريدة الأهرام: العدد ٣٦٦٧٤، الصادر بتاريخ ١٩٨٧/٥/٧م.

(٢) سورة الفجر: الآيات ٢٧ – ٣٠.

فإذا ما أرادوا أن تعود لهم عزتهم وسيادتهم وكرامتهم وأن يقودوا العالم من جديد فعليهم أن يغيروا من أنفسهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [1]. ولنعلم جميعنا أن الله لا يتغير من أجلنا ولكن يجب أن نتغير من أجل الله"[2].

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

(٢) محمد متولي الشعراوي: هذا هو الإسلام، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، ص ١١٣.

الخاتمة

نخلص من هذا إلى النتائج التالية:

١- أن الله خلق للإنسان مصادر للمعرفة هي الحس والعقل والقلب إلى جانب الخير المنزل من السماء.

٢- أن الحس عاجز عن أن يحيط علما بالله والعقل قادر على تعقل وجوده تعالى والاستدلال على ذلك من وجود الخلق على وجود الخالق، أما قلب المؤمن فقد وسع الله تعالى بينما عجزت السموات والأرض عن ذلك.

٣- أن المعرفة بالله عن طريق الاستدلال العقلي لا ترقى إلى الإيمان القلبي فالأخير أثبت وأيقن وأعمق.

٤- إن معرفة الله معرفة ذوقية قلبية عن طريق نور يقذفه الله في قلب العابد الواصل إلى الحضرة الإلهية دون واسطة من حس أو عقل ولا تكون إلا للقلوب الصافية النقية التي تطهرت بالرياضات الروحية والعبادات العملية.

٥- إن الإيمان بالله يوجب علينا أن نسلم بالسمعيات ولا ننكرها.

٦- أن الإيمان بالله لا يتنافى مع النظر العقلي والتأمل والتفكر.

٧- أن الإيمان بالله لا يعوق البحث العلمي بل أن الله يمجد العلم والعلماء ويضعهم في أرفع المنازل.

٨- إنه ليس كل ما لا نستطيع إدراكه عن طريق الحس أو تصوره عن طريق العقل يكون غير موجود بالفعل، فهناك الكثير من الأشياء لا ندركها بالحس ولا نتصورها عقلا وهي موجودة بالفعل والعلم يثبت لنا ذلك كل يوم حينما يكف بالأجهزة الحديثة أشياء لم نكن نعلم بوجودها ولا ندركها حسيا ولا نتصورها عقليا.

٩- إن معرفة الله فطرية في النفس الإنسانية.

١٠- أن الإيمان بالله تعالى والعمل الجاد في طاعته والالتزام بما أمرنا به من طلب العلم والمعرفة لخدمة الإنسان هو طريق أمتنا إلى التقدم والنهوض.

١١- أن المعرفة بالله لا تتأتى إلا عن طريق الإيمان ويمكن القول أن المعرفة بالله هي الإيمان به تعالى.

فهرس

تمهيد: ٥

أولاً : الحس كمصدر للمعرفة: ١١

دور الإدراك الحسي في معرفة آثار الله كما جاء في القرآن الكريم: ١٤

ثانيًا : العقل كمصدر للمعرفة: ٢١

دور العقل في معرفة الله كما جاء في القرآن الكريم: ٢٣

ثالثًا : القلب كأداة للمعرفة: ٢٩

دور القلب في معرفة الله كما جاء في القرآن الكريم: ٣٥

رابعًا : النص المنزل كمصدر للمعرفة: ٣٧

الخاتمة ٤٦

الفهرس ٤٨

تم بحمد الله